امرأتان عظيمتان
من دولة المغول

للدكتور محمد بهجت

عندما يطوف السائح بمدن لاهور وأكرا ودلهي بشمال الهند تتفتح أمامه صحف عديدة من تاريخ المغول العظيم ، حافلة بجلائل الأعمال وضروب البطولة ، ويلمح في ثنايا تلك الصحف بعض السطور البارزة التي خطتها أنامل بعض نساء المغول في تاريخ تلك البلاد الجيدة . ومن أبرز نساء تلك الدولة سيدتان عظيمتا الخطر ، ربطتهما وشيجة رحم وعاشتا في عصر واحد . كانت كلتاهما زوجة لامبراطور ، رائعتي الجمال ، راجحتي العقل تانكم المرأتان هما « نور جاهان » « وممتاز محل »

أما نور جاهان فمن أصل فارسي ، ضاقت سبل العيش في وجه أبيها — « مرزا غياث » — فأزمع الهجرة من طهران إلى الهند ، عسى الحظ يبسم له هناك . وفي الطريق ولدت له ابنة سماها « مهر النساء » . وكان مسافراً معه في القافلة تاجر ثري رقيق القلب اسمه « مالك مسعود » أخذته به وبعائلته الرأفة شفقة فتولاهم بعنايته ومعونته طول الطريق حتى بلغوا دلهي بسلام . وهناك أراد « مسعود » أن يسدي يدا أخرى لصديقه المسكين فقدمه للامبراطور « أكبر » العظيم الذي ألحقه بخدمته كما ألحق زوجه وبناته بالقصر مع حريمه . وبعد ما أبدى كفاءة وإخلاصا في عمله أحبه الامبراطور وأدناه ورقاه

وفي أثناء ذلك نشأت « مهر النساء » وترعرعت بين نعيم القصر وأبهته ، وألفت حياة البذخ والترف . وما إن بلغت السابعة عشرة حتى زوجت من ضابط باسل بجيش الامبراطور اسمه « علي كول » . وكان هو الآخر فارسيا وسيم الطلعة ، قوي البنية ، خدم في أول الأمر الشاه إسماعيل الثاني — شاه الفرس — بأن كان نادلا يقدم له صحائف الطعام ، وسرعان ما جذبته الهند واستهوته مغامراتها فهاجر إليها والتحق بخدمة أكبر . وهناك برزت مواهبه فألحقه بأركان حرب ابنه الأمير « سليم » عندما خرج على رأس جيش كبير لإخضاع ولاية « ميوار » فأبدى من ضروب البسالة والشجاعة ما حبب فيه الأمير وقربه إليه ، وأجزل له العطايا والمنح ، وسماه « شر أفغان » أي قاتل النمر لأنه أردى نمراً متوحشا أمامه ، وأصبح علما له فيما بعد . وبعد انتهاء الحملة ، ولأمر ما ، شق الأمير عصا الطاعة على أبيه ومليكه فانفض أكثر الضباط المخلصين من حوله ومن بينهم « شر أفغان » ولما كان من عادة جنود المغول استصحاب نسائهم في الحروب فربما عرضت للأمير فرصة لمح فيها زوجة صديقه الشابة الفاتنة . ويقول بعض الكتاب إنه رآها عدة مرات ترتع في حدائق القصر وردهاته فأسرت فؤاده وسكن طيفها قلبه حتى آخر عمره

وسارت الأحداث سيرها إلى أن توفي « أكبر » واعتلى « سليم » عرش أبيه بعد حوادث دامية في الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٦٠٥ وصار يعرف باسم نور الدين محمد وبكنيته « جاهان جير » أي القابض على ناصية العالم . وفي يوم ما تذكر صديقه القديم فاستدعاه وصفح عنه وأسند إليه منصبا كبيرا بعيداً ببنغالة . وهنا تختلف رواية المؤرخين ، فبعضهم يقول إن حب « مهر النساء » استبد به وعصف بقلبه فأرسل إليها رسولا خاصا يغريها بهجر زوجها والالتحاق بالامبراطور المتيم بها ، فأبت كل الإباء ، وغضبت لهذه المساومة الدنيئة ، وكذلك ثار زوجها لشرفه ، فأوعز الرسول إلى الحاكم أن يغتاله ، فقتل مدافعا عن كرامته وعرضه ، ثم حملت زوجه وابنتها الطفلة إلى العاصمة وألحقتا بجناح الملكة « سليمة » . والبعض الآخر من المؤرخين ينفي هذه الرواية بل يستنكرها بقوة قائلا ببراءة الامبراطور من هذه التهمة القذرة ، ويفسر ما حدث بأن الأخبار ترامت إلى الامبراطور بأن « شر أفغان » ثائر عليه باستدعائه إلى العاصمة ليشرح موقفه منه ، وليمتحن إخلاصه له ، فأبى . وعند ذلك أراد « قطب الدين كولا » حاكم بنغالة أن يقبض عليه فملأه « شر أفغان » بسيفه وأصابه بجراح بالغة ، وعند ذلك

وان ترد صورة قبيحة على صورة (مليحة) »

ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدري أو لو يريد ! إن كلمة من قلب مفتوح ، أو بسمة من شفة بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ، أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو قسمة من صورة فاتنة ، لتستطيع أن تنير ما أظلم من قلبه ، وأن تفرج ما اشتد من كربه ! إن السعادة فلتات وفترات ، فلا تكون في واحد صحيح ، ولا تدوم في زمن متصل !

انقض عليه حرسه وقطعوه بسيوفهم إربا . وهكذا فصل الموت بين ذينك القلبين المتحابين بعد ستة عشر عاما من زواج سعيد موفق

وفى شهر مايو من عام ١٦١١ أى بعد ست سنوات من اعتلاء « جاهان جير » العرش وبعد أربع سنوات من مقتل « شر أفغان » أعلن الامبراطور زواجه من « مهر النساء » بالغا من العمر اثنتين وأربعين سنة ، أما هى فكانت تصغره بتسع سنوات . وهكذا أصبحت الطفلة التى ولدت فى الطريق من أب رقيق الحال ، والفتاة التى أوردها الحظ موارد النعيم ، والأرملة الشابة الفاتنة التى بكت زوجها الحبيب أربع سنوات ، إمبراطورة لدولة عظيمة . وهكذا بدأت هذه المرأة الفذة تملى والتاريخ يكتب

نحن لا نعلم على وجه التحقيق كيف رضيت أن تتزوج من الامبراطور بعد طول إباء ، وأغلب الظن أنها توسمت فيه أداة المجد والشهرة ، ووسيلة لتحقيق مطامعها الواسعة . ولكن دلت كل الدلائل فيما بعد أنها أحبته وأخلصت له مثلما أحبت زوجها الأول وأخلصت له . أما هو فقد هام بها هياما شديدا وأخذ يغمرها بأجزل العطايا الثمينة ، ويغدق عليها أكثر مايمكن أن يغدقه امبراطور عظيم على أسرة روحه ، ومصدر سعادته ، ثم إنه اشتط فأمر بنقش اسمها بجوار اسمه على النقود ، الشئ الذى ليس له نظير فى التاريخ الإسلامى . وكان يدللها بأعذب الألفاظ وأرقها فسماها أولا « نور محل » غير أنه استقل ذلك فعدله إلى « نور جاهان » أى نور العالم ، وهو الاسم الذى عرفت به حتى الآن . وإذا علمنا أن « جاهان جير » كان رجلا فظا غليظ القلب ، سريع البادرة ، سريع الغضب ، لدهشنا كيف استطاعت هذه المرأة القديرة أن تسيطر عليه وتجعله طوع بنانها . فإذا ما انتابته نوبة من نوبات الغضب الجارف لم يجرؤ أحد أن يدنو منه سوى زوجته الحبيبة ، فتطفئ تلك النار الخبيثة التى تأكل روحه بلمسة رقيقة أو بسمة مشرقة أو كلمة عذبة ، فينقلب وادعا مستسلما ، فكانت بحق مروضته الوحيدة

ومن أهم مزاياها التى أسرت بها القلوب واستعبدت الرعية ، الكرم الحاتمى والعطف على الفقير الذى كانت له بمثابة الغيث ينزل على الأرض الجدبة فيحييها . لم ترد طالب رفد ، أو تخيب أمل قاصد . وكانت راعية الفتيات الفقيرات تزوجهن وتمهرهن وتيسر لهن العيش الكريم . وكم من ضعيف حميته ، ومن مظلوم أنصفته وانتصفت وانتصرت له . ثم إنها شملت أقاربها بسامى رعايتها ، فجمعتهم حولها وأسندت إليهم المناصب العالية ، فأصبح والدها رئيساً للوزراء مع لقب اعتماد الدولة ، وأخوها آصف خان رئيساً لتشريفات الإمبراطور مع لقب اعتماد الدولة أيضاً ، كما أصبح من أعظم رجال الدولة مالا وجاها .

وفضلا عن جمالها الساحر وأنوثتها الجارفة كانت « نورجاهان » شاعرة مجيدة ، رهيفة الحس ، واسعة الأفق والخيال ، مصقولة الذوق ، عالية الثقافة ، ملمة بالآداب الفارسية والعربية ، فكانت تهدهد الإمبراطور بشعرها العاطفى الرقيق ، وبمقطوعاتها المذيبة السكرة . وكانت تضع جميل الرسوم للمنسوجات ، وتبتكر الأزياء فى الملابس والحلى بذوق رفيع نادر لم يعهد من قبل فى بلاط الإمبراطور .

ومن عجب أن امرأة هذه بعض صفاتها تكون قوية البنية ، صلبة الميزانة ، مولعة بالألعاب الرياضية ، بل وفارسة من الطراز الأول ، تعتلى صهوات الجياد ، وتخوض المعارك بشجاعة نادرة وثبات عجيب ، فلا يطرف لها جفن ، أو يتزلزل لها جنان فى أخطر المواقف وأحلك اللمات . وكثيراً ما رافقت زوجها فى حفلات صيده ، وقتلت بعض النمور المفترسة أمام الامبراطور المعجب ، الذى لم يسعه إلا أن يهدى إليها عشرة سوارين من الماس النادر ، وأن يأمر بتوزيع ألف كساء على الفقراء ، إعرابا عن فرط سروره ببطولة زوجته . وسوف نقف على المزيد من ضروب شجاعتها بعد قليل

وبجانب هذا كله استطاعت « نور جاهان » أن تدير شؤون الملك بيد حازمة ، وعقل راجح ، وعين يقظة ثاقبة ، تنفذ بها إلى بواطن الأمور ، وأعماق السرائر ، فلم تفتها شاردة ولا واردة من شؤون الدولة ، وأحاطت بجميع المسائل السياسية والعسكرية إحاطة تامة ، حتى تهيبها رجال السيف والقلم ، الذين لم يكونوا أنداداً لمناقشتها ، فكانوا يأتمرون بأمرها راكعين . أما أكابر البلاد وسراتها ، فكانوا يقدمون لها فروض الطاعة ، ويبتغون

مرضاتها ، عالما منهم بأن سعادتهم أو شقاءهم رهن بكلمة تخرج من بين شفتيها ، أو بإشارة عابرة من يدها ، حتى لقد قال عنها بعض المؤرخين : « إنها قوة من وراء العرش »

ولو أن الأمور اقتصرت على ذلك لختمت هذه المرأة حياتها خاتمة سعيدة ، ولتمت لها حياة راضية هنيئة لم تتم لامرأة أخرى . فقد كان إيثارها لأفراد أسرتها ومحاسبتها ، وخصمهم بأرفع المناصب عاملا من العوامل التي أوغرت عليها بعض الصدور ، وبابا تسربت منه عوامل الفساد ، بما فيها الرشوة واستغلال النفوذ .

ثم إن مطامعها أملت عليها أن تضمن العرش لابنتها من زوجها الأول ، فكيف دبرت ذلك .

كان الامبراطور أربعة أبناء هم خسرو وكرام وبارفز وشهريار . فأيهم تختار ؟ كان خسرو ثائرا على أبيه ، واشتبك في عدة معارك دموية مع جيوش الامبراطورية ، ولكنه هزم في آخر الأمر ، وأسر ، وسملت عيناه ، وأودع السجن . ومع ذلك فقد كان محبوبا وله أنصار كثر . وأما كرام فقد فكرت فيه كثيرا ، وراقبته طويلا ، وأيدته إلى حين ، غير أنها عدلت عنه لما تبين لها من قوة شكيمته ، وشدة مراسه ، فضلا عن أن أخاها « آصف خان » سبقها إليه ، وزوجه من ابنته . وأما بارفز ، الوارث الشرعي للعرش ، فكان تافه الشخصية ، احتضنه « مهابت خان » ، القائد الكبير الذي ناصب « نور جاهان » العداء ، « وأخذ ينصب حولها شباك المؤامرات . إذاً لم يبق أمامها سوى « شهريار » الذي زوجته منى ابنتها في عام ١٦٢٢ وسندته بقوة ، وأخذت تدفعه قدما نحو العرش . ولننظر الآن كيف انتهى ذلك الصراع بين تلك المعسكرات الثلاثة

رق قلب الامبراطور لابنه السجين « خسرو » فأطلق سراحه ، ولما خافت « نور جاهان » مغبة ذلك أفسدت العلاقة بينه وبين أبيه الذي أمر بوضعه تحت يد قائده « مهابت خان » ليرى فيه رأيا ، ولكن الأخير سلمه بدوره إلى أخيه الأمير « كرام » الذي أمر بقتله فوضع بذلك حدا لآلامه ، ولتاريخه المحزن ، وتخلص من مزاحم له على العرش

ثم حدث أن استولى شاه الفرس « عباس » على قندهار ، فأمر الامبراطور ابنه البطل « كرام » (شاه جاهان) بالتوجه إليها واستردادها . ولكنه تردد بعد أن أبصر يد « نور جاهان » تقصيه عن طريق العرش وتمهدها « لشهريار » الذي طلبت من الامبراطور إسناد القيادة إليه ، كما طلبت منه أن يأمر « شاه جاهان » بإعادة القوات التي تحت إمرته إلى العاصمة . وبعد ما حاول عبثا أن يصلح ما بينه وبين أبيه ، وأن يخلصه من نفوذ زوجته الذي يوشك أن يقوض أركان الامبراطورية ، ثار عليه وهاجم أكرا عام ١٦٢٣ م ولكن هزمته جيوش أبيه تحت إشراف « نور جاهان » وبمساعدة أنصارها من الضباط القدماء ففر جنوبا إلى الدكن . وبعد محاولات عديدة فاشلة لاستثارة حكام الولايات ضد والده ، وبعد عدة مغامرات تبادله فيها الحظ والنحس ، وبعد معارك شديدة مع جيوش الامبراطورية التي كانت تطارده حيثما ذهب ، هزم في معركة فاصلة على يد أخيه الأمير « بارفز » « ومهابت خان » واستسلم لهما بعد أن هجره كثير من ضباطه وانحازوا إلى جانب قوات أبيه ، ونزل عن كل ما كان في قبضته من أراض وقلاع وحصون ، واضطر إلى كتابة خطاب لأبيه يعتذر عما فرط منه ، ويستعطفه ، ويطلب منه الصفح والغفران . وتأكيدا لحسن نواياه أرسل ابنيه « دارا » « وأورانك زيب » إلى دلهي رهينة ، كما أرسل لوالده هدايا ثمينة تقدر بنحو مائة ألف روبية . فصفح عنه والده بناء على نصيحة « نور جاهان » التي أوجست خيفة من تحالف الأمير « بارفز » « ومهابت خان » ثم اعتكف مع زوجه وابن له يسمى « مراد » في بلدة ناسك الصغيرة ، مرتقبا الفرص

بعد ذلك وقفت « نور جاهان » وجها لوجه أمام « مهابت خان » فأنهمته بالاختلاس واستغلال النفوذ ونشر الفساد وجرد صهره من ثروته ، ووجهها بالسؤال : من أين لك هذا ؟ ثم صدر أمر الامبراطور له بالتخلي عن القيادة العليا للجيش ، وبتولي حكومة ولاية بنغالة . فأبدى الأمير « بارفز » استياءه العظيم واحتج عبثا على سوء معاملة القائد الأكبر الذي هيل صبره واشتم رائحة التدبير ، فاعتزم أمرا خطيرا وهرب في خمسة آلاف مقاتل من الراجبوت الأشداء ، وأخذ يقفو أثر الامبراطور

فشاهده يعبر قنطرة على نهر « جهيلم » ، بعيداً عن حرسه ، فأطبق عليه وأسره . وكانت مفاجأة مؤلمة لمعسكر « جاهان جير » ووقع فيه اضطراب عظيم ، وهربت « نور جاهان » مع أخيها « آصف خان » الذى كان معها . ولكن عز عليها أن تتخلى عن زوجها فى محنته ، فدبت فيها النخوة والحمية والنجدة فكرت راجعة وحضت قائد الجيش « فدائى خان » الذى قام بهجوم عنيف لم يكتب له النجاح لفرار الضباط والجند ، وللحالة الفوضى التى كانت سائدة . وعندئذ تجلت شجاعة هذه المرأة العظيمة ، فامتطت ظهر فيلها الهائل ، وتقدمت به على رأس من تبعها من الجند الذين دهشوا لجرأتها ، فهجمت على الأعداء هجمة صادقة وهى تمطرهم بوابل من السهام ، وحاولت فى تقدمها عبور النهر ، ولكن أسرع جنود « مهابت خان » إلى إشعال النار فى القنطرة ، فلم يثن ذلك عزمها واستطاعت أن تصل إلى الشاطئ فى وجه مقاومة عنيفة ، تتطاير السهام من حولها ، وتتفجر الكرات النارية حول هودجها . وهنا بلغ الروع أشده والفزع نهايته ، وأخذت الخيل والأفيال والفرسان تساقط فى النهر وتداس وتمرك . ثم قتل سائق فيلها فجمح بها الفيل وغاص فى ماء النهر ، ولكنه بلغ بها الشاطئ مرة أخرى ، فاندفع نحوها النسوة يولولن ، والخاصون من الجند والحاشية يدرأون عنها السهام والرماح بأجسامهم ، ويفدونها بأرواحهم . أما هى فجلست هادئة ، مخضوبة بالدم ، تنزع سهما أصيبت به حفيدتها من شهريار ، وتضمد جراحها هى . ولما رأت أن لا جدوى من المقاومة ، رضيت بالأسر مع زوجها ، عساها تستطيع إنقاذه . أما أخوها فارتد بالثلاثة آلاف مقاتل الذين كانوا معهم واعتصموا بحصن قريب . وفى الأسر استخدمت أسلحة أخرى غلبت مالم تغلبه أسلحة الحرب . استمالت بذكائها ودهائها وجمالها ... فاستمالت إليها ضباط « مهابت خان » ، ثم استولت على كنوزه — ولما رأى ذلك نجا بنفسه وبنفر قليل من أنصاره وفر إلى الدكن حيث وافى « شاه جاهان » وتحالف معه على « نور جاهان » واستعجل القدر خاتمة الرواية فمات الأمير « بارفز » عام ١٦٣٦ م . أما الإمبراطور المسن فقد تابع سيره إلى كابل ثم عاد منها إلى كشمير لقضاء فصل الصيف . وفى أواخر عام ١٦٢٧ م . حينما كان عائداً من مصيفه بكشمير مرض مرضاً شديداً ومات فى الطريق ببلدة « بهمبار » ومنها نقل جثمانه إلى حديقة « نور جاهان » المعروفة باسم حديقة « دلكوشا » بشاه دارا إحدى ضواحى مدينة لاهور . وهناك كانت « نور جاهان » بجانب نعش زوجها تبكيه بدموع غزار إلى أن ووري التراب ، وأمرت بإقامة ضريح فخم له . وبعد أن تمت مراسم الدفن أعلن الأمير « شهريار » نفسه إمبراطوراً فى لاهور ، تؤيده حماته ، وفى نفس الوقت طير « آصف خان » نبأ موت الامبراطور إلى صهره « شاه جهان » الذى كان بالدكن فأسرع نحو الشمال برفقة « مهابت خان » على رأس جيش كبير ليفوز بالعرش . وشغلاً للعرش الشاغر بأكرا نصب « آصف خان » ابن خسرو (دوار بخش) إمبراطوراً إلى حين وصول « شاه جاهان » ثم تقدم على رأس جيش قوى إلى لاهور . وهناك حاولت « نور جاهان » أن تتصل بأخيها لتستميله إلى جانبها ولكنه أعرض عنها وانقض على جيش شهريار وهزمه هزيمة منكرة وأسر « شهريار » وسملت عيناه ثم قتل بعد ذلك . ولما وصل « شاه جاهان » أعان آصف خان الامبراطور المؤقت على الهرب ؛ أما أتباعه وأتباع شهريار ونور جاهان فقتلوا شر قتلة ، وكان الإسراف فى القتل شديداً لدرجة ألجأت بعض نساء القصر إلى الانتحار . وهكذا سار « شاه جاهان » إلى العرش فى طريق مخضب بالدم مرصوف بالجماجم . وكان ذلك فى السادس من شهر فبراير عام ١٦٢٨ م

أما « نور جاهان » فلم تمس بسوء ، أو تمتهن كرامتها ، بل لقيت كريم الصفح ، وعظيم الاحترام والعطف ، وأجرى عليها الإمبراطور الحليم معاشاً سنوياً ضخماً يضمن لها حياة كريمة. ولما رأت يديها خالية من زوجها الحبيب ، وصرح آمالها منهاراً أمامها ، والدنيا عنها مدبرة ، لبست الثياب البيضاء حداداً على زوجها ، واعتزلت الحياة العامة ، وزهدت فى مظاهر البذخ والأبهة ، وعاشت مع حفيدتها أرملة « شهريار » عيشة بسيطة إلى جانب قبر زوجها فى لاهور إلى أن ماتت فى الثامن من شهر ديسمبر عام ١٦٤٥ .

طافت برأسى قصة هذه المرأة العظيمة وأنا واقف بحديقتها